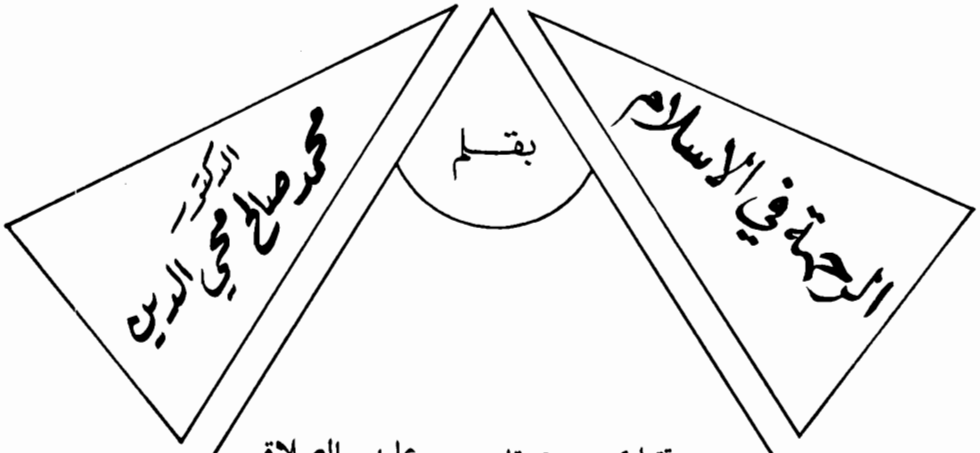

وتتبدى رحمته – عليه الصلاة والسلام – في أجمل وأبهى حلة وهو يوصي بالضعفاء والفقراء والمساكين والأرامل والأيتام. يقول صلوات الله وسلامه عليه: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا (مشيراً بأُصبعيه السبابة والوسطى).

ويقول عليه أزكى الصلاة والسلام: «إن أحب البيوت إلى الله بيت «فيه يتيمٌ مُكْرَم».

ويقول: «والذي بعثني بالحق لا يعُذب الله يوم القيامة من رحم اليتيم، وألان له في الكلام. ورحم يتمه وضعفه» (رواه الطبراني)

الحمدلله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

« وبعد » :

فخليق بنا – ونحن نتحدث عن الرحمة في الإسلام – أن نبدأ الحديث بالرحمة عند رسول الإسلام ﷺ أولاً ، ثم نعرج فنعرض بعض صورها عند من رباهم عليها ، عليه الصلاة والسلام ، إن اتسع النطاق المكاني لذلك .

الرحمة – في اشتقاقها اللغوي – ذات صلة وثقى بالرحم ، ولا يقصد بالرحم هنا الجهاز العضوي الذي يحفظ الله فيه النطفة المخلقة حتى يتم تكوينها وتستوي جنيناً ، بل يُقصد بالرحم ما يرمز إليه وهو القرابة .

غير أن الرحمة إذا تأصلت في إنسان ما سوّت في المودة بين القريب والغريب ولم تفرق بينهما ، وهذا ما نلحظه بوضوح في الرحمة التي جاء بها الإسلام ، وعمّق مدلولها ، ووسع نطاقها ، رسول الله ﷺ .

(١)

وُلد الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه – كما هو معلوم – يتيماً ، فقد مات أبوه عبدالله بن عبد المطلب وهو في بطن أمه آمنة لم يمض على حملها به ﷺ أكثر من شهرين ، وماتت أمه آمنة وما تجاوز عمره ﷺ ست سنين . فهل لله سبحانه حكمة من وراء يُتم محمد ﷺ أكرم به من يتيم ؟ الجواب بالإيجاب دون أدنى ريب .

وإذن ! هل أراد الله اليتم لأعظم خلقه ليلوذ به وحده ، وليقول دائماً ومنذ صغره : يا ربي ، ولا يقول – ولو مرة واحدة ، وكم قال أترابه – يا أبي ؟؟

هل اختار الله اليُتم لأكمل خلقه ليصنعه على عينه ، ويجعل منه نسيجاً وحده ، ويُؤدبه فيُحسن تأديبه كما قال عليه الصلاة والسلام ؟

هل اختار الله اليُتم لأشرف خلقه ليجعل منه سبباً ووسيلة لتفجير ينابيع الرحمة في قلبه الرحب تفجيراً ؟؟

مهما تكن حِكَم الله تبارك وتعالى من وراء يُتم محمد ﷺ فقد اعترف أصدقاء الإسلام وأعداؤه – أمام حقائق التاريخ الثابتة – أن محمداً ﷺ كان مثالاً فريداً للرجل الكريم الرحيم ، وأن رحمته – عليه الصلاة والسلام – وسعت كلَّ شيء ، فشملت الإنسان والحيوان والجماد .

وإذا حاول بعض مدعي العلم من المستشرقين ، ومن تبعهم من المستغربين أن يزعموا أن الرحمة عند محمد ﷺ كانت ردَّ فِعْل ليُتمه ، فإنَّا نقول لهم إن الذي يفهمه المنصف من سيرته العطرة ﷺ ، ومن شمائله الزكية ، ويراه متسقاً مع وجوده كله ﷺ ، هو أن الرحمة كانت « فِعْلاً » له ﷺ ، ربما درّبه ربه – تبارك اسمه – عليه خلال مراحل يُتمه ، الذي شاء سبحانه أن يكون واحداً من الأساليب التي اقتضت حكمته جل وعز أن يأخذ بها نبيّه – عليه الصلاة والسلام – وهو يُربيه على أكرم الخصال وأجمل الصفات .

(٢)

يقول الله تعالى مخاطباً نبيَّ الرحمة : « **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** »(١)

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٦٠ .

ويصف عز وجل نبيَّه بهذه الرحمة الشاملة والرأفة الكاملة فيقول تبارك اسمه : «**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ**»(١)

ويُقرر سبحانه هذه الرحمة الواسعة التي خصّ بها نبيه ﷺ ، والتي امتدت فوسعت العالم كله ، إنسه وجنّه ، مسلمه وكافره ، حيوانه وجماده ، فيقول تبارك وتعالى : «**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**»(٢)

ويعبر القرآن الكريم بأسلوب فريد في فصاحته وبلاغته عن رحمة خير خلق الله محمد صلى الله عليه وسلم فيقول العليّ القدير : «**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ**»(١)

ويتحدث الرسول الكريم ﷺ عن الرحمة التي نذر نفسه لنشرها ، فيبهر الألباب ، ويُطمئن النفوس ، حين يقول في بهاء : «**إنما أنا رحمة مهداة**»(٤)

ويحض على الرحمة بأبلغ عبارة وأقواها أثراً في النفوس فيقول : «**الراحمون يرحمهم الرحمن**»(٥) «**ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**»(٦)

---

(١) سورة التوبة الآية ١٢٩ .
(٢) سورة الأنبياء الآية ١٠٨ .
(٣) جزء من الآية السابقة من سورة الأحزاب .
(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة وهو حديث صحيح .
(٥) رواه أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن صحيح ، ولفظه «الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» .
(٦) رواه البخاري .

ولا يدع – عليه الصلاة والسلام – فرصة تسنح للتحريض على الرحمة والحث عليها إلا اهتبلها ، فهذا أعرابي يسأل عن عمل يقربه من الجنة ويباعده عن النار ، فيراها الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه فرصة للدعوة لبذل الرحمة للناس ، فيقول لهذا الأعرابي – في بعض ما يقوله له عليه الصلاة والسلام – : « **لك إبل ؟ يقول الأعرابي نعم !** فيقول له الرسول ﷺ : « **فانظر إلى بعير من إبلك وسِقاء ، ثم اعمد إلى أهل بيت لا يشربون الماءَ إلاَّ غبّاً فأسقهم ، فلعلك لا يهلك بعيرك ولا ينخرق سِقَاؤك حتى تجبَ لك الجنة** »[1] .

ويُصور ، صلوات الله وسلامه عليه ، عظم الأجر وموفور الجزاء الذي يتفضل به الله على من يكون في قلبه مقدار – ولو ضئيل من الرحمة على خلق الله فيقول : « **أتى الله بعبد من عباده كان قد آتاه مالاً ، فقال له : ماذا عملت في الدنيا ؟ قال : يا رب ، آتيتني مالاً فكنتُ أُبايع الناس ، وكان من خلقي الجَواز . [التسامح] فكنتُ أيسر على الموسر ، وأنظر المعسر ، فقال الله تعالى « أنا أحق بذلك منك ، تجاوزوا عن عبدي » ، ثم يُخبر الرسول عليه الصلاة والسلام عن جزائه بقوله : « وأدخله الله الجنة** »[2] .

ويقول عليه الصلاة والسلام في ذات المعنى مخاطباً صحابته ، موقظاً فيهم أسمى الدوافع الإنسانية : « **ا يكم يسره أن يقيه الله عز وجل من فيح جهنم ؟ فيقول هؤلاء الأصحابُ الكرام : يا رسول الله ، كلنا يسره ، فيقول عليه الصلاة والسلام : « من أنظر معسراً ، أو وَضَع له ، وقاه الله عز وجل من فيح جهنم** »[3] .

---

(١) انظر : خالد محمد خالد : انسانيات محمد ص ٢٠ – ٢١ .
(٢) أخرجه مسلم في باب البيوع من حديث عقبة بن عامر وأبو مسعود الانصاري .
(٣) أنظر : خالد محمد خالد : إنسانيات محمد ص ٢٥ .

ويملأ – عليه الصلاة والسلام – قلوب المسلمين ثقة واطمئناناً في رحمة الله وسعتها مهما كانت خطايا البشر، فيقول: «**جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلق، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تُصيبه**»[1]

ويزيد – عليه الصلاة والسلام – هذا الأمر وضوحاً بالتمثيل بالواقع المشاهد، لتستقر الرحمة في القلوب، فيشير – وهو بين أصحابه – إلى امرأة تضم طفلها إلى صدرها في حنان ظاهر، وحرص أكيد ويقول: «**أترون هذه طارحةً ولدها في النار؟ قال الصحابة: لا والله، يا رسول الله، قال عليه الصلاة والسلام: «الله أرحم بعباده من هذه بولدها**»[2].

وتتبدى رحمته – عليه الصلاة والسلام – في أجمل وأبهى حلة وهو يوصي بالضعفاء والفقراء والمساكين والأرامل والأيتام. يقول صلوات الله وسلامه عليه: «**أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا: (مشيراً بأَصبعيْه السبابة والوسطى**»[3].

ويقول عليه أزكى الصلاة والسلام: «**إن أحب البيوت إلى الله بيت فيه يتيم مُكْرَم**»[4].

ويقول: «**والذي بعثني بالحق لا يُعذبُ الله يوم القيامة من رحم اليتيم، وألان له في الكلام، ورحم يُتمه وضعفه**»[5].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب.

(٢) رواه البخاري مع اختلاف يسير في كتاب الأدب، وانظر: خالد محمد خالد انسانيات محمد ص ٣٠.

(٣) البخاري، كتاب الأدب مع يسير اختلاف.

(٤) رواه الطبراني والاصبهاني عن ابن عمر.

(٥) رواه الطبراني.

ويُواصل ، عليه الصلاة والسلام ، حد به على هؤلاء الضعفاء فيقول : « **الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله ، أو كالذي يصوم النهار ويقوم الليل** »[1] .

لقد هام الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بالرحمة حُبّاً ، وفاض بها قلبه الكبير الطاهر ، فأخذ يلتمس أجمل السبل ، وأوضح المناهج ، وأحب الوسائل لترسيخها في وجدان المسلم ، في أروع صورة ، وأبهى رُواء ، وأنضر إهاب . تأمل كلماته الطاهرة المضيئة وهو ﷺ يقول – مصوراً رحمة الله ببعض عباده الذين أسرفوا على أنفسهم في هذه القصة الرائعة التي جاءت في الحديث المتفق عليه[2] :

عن أبي سعيد الخُدْريّ رضي الله عنه ، أن نبيَّ الله ﷺ قال : « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نَفْساً ، فسأل عن أعلم أهل الأرض ، فدل على راهب فأتاه ، فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نَفْساً ، فهل له من توبه ؟ فقال : لا ، فقتله فكمل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض ، فدل على رجل عالم ، فقال : إنه قتل مائة نفس ، فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ، ومن يحول بينه وبين التوبة ؟ أنطلق إلى أرض كذا وكذا ، فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء ، فانطلق حتى إذا نَصَفَ الطريق أتاه الموت ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى ؛ وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيراً قط ؛ فأتاهم ملك في صورة آدمي ، فجعلوه بينهم [حَكَماً] فقال : قيسوا ما بين الأرضيْن ، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له ، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب .

(٢) أي الذي رواه البخاري ومسلم .

أراد ، فقبضته ملائكة الرحمة » . **وفي رواية للبخاري : « فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبر فجُعل من أهلها ، وفي رواية أخرى**[1] **« فنأى بصدره نحوها** » .

هذا قبس مضيىء ، ونزر يسر ، من نصوص القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، المنبئة عن رحمته ﷺ ، بعبارة أوضح : هذه بعض الأدلة على نظرية الرحمة في الإسلام كما جاءت في بعض آيات كتابه الاعظم ، وكما نطق بها رسوله ﷺ . فما هي – إذن – مظاهر الرحمة من سيرته عليه الصلاة والسلام ؟؟ بعبارة أخرى : ما هي صور التطبيق العملي للرحمة في سلوك رسول الإسلام ﷺ ؟؟

(٤)

الرحمة باعتبار مَن تقع عليه أنواع ؛ رحمة بالنفس أوجبها الله عز وجل حين قال في كتابه العزيز : « **وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ** »[2] . ورحمة بالغير ، ولا يقتصر « الغير » عند رسول الله ﷺ على الإنسان ؛ بل يشمل كذلك الحيوان والجماد ، فقد عُني ﷺ في رحمته بكل هذه الأنواع ، ومدّ ظلها الوارف على كل ذي كبد رطب ، بل تجاوز ذلك – من فرط ألفه ووده – إلى الجماد الذي ليس له كبد ولا إحساس .

في مجال الرحمة بالنفس[3] كان من هديه القويم ﷺ ما رواه أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « **جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبيّ ﷺ يسألون عن عبادة النبيّ ﷺ** ، فلما أخبروا كأنهم تقالّوها[4] ، **وقالوا أين نحن من النبيّ ﷺ**

---

(١) انظر : الامام النووي ، رياض الصالحين ص ١٤ – ١٥ ، تحقيق رضوان محمد رضوان .
(٢) سورة البقرة الآية ١٩٥ .
(٣) أي أن يرحم الإنسان نفسه .
(٤) عدوها قليلة .

وقد غُفِر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . قال أحدهم : أمّا انا فأصلي الليل أبداً ، وقال الآخر : وأنا أصوم الدهر أبداً ولا أُفطر ، وقال الآخر : وأنا اعتزل النساء فلا أتزوج أبداً ، فجاء رسول الله ﷺ فقال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر ، وأُصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[1] .

لقد كانت المفاضلة – كما هو واضح من هذا الحديث الشريف – قائمةً بين العبادة التي بُعث الرسول الكريم ﷺ لإعلاء شأنها وحمل الناس عليها ، وبين الرحمة التي أرسله الله لينشرها بين العالمين ، وحيث أن الرسول الكريم ﷺ يُدركُ بثاقب فكره ، وصادق إحساسه ، حاجة البشر إلى الرحمة لتستقيم أمور حياتهم ، وغِنَى العليّ القدير عن عبادة خلقه التي تتجاوز حد الاعتدال وتُفضي إلى تعذيب النفس – والله غنيٌّ عن خلقه على كل حال – فقد بيّن ﷺ في بلاغة آسرة أن الرحمة بالنفس خير وأزكى من الإفراط في العبادة .

ويؤكد ﷺ هذه الرحمة في حديث آخر فيقول لعبد الله بن عمرو بن العاص وقد بلغه عليه الصلاة والسلام أنه قال : **والله لأصومنّ النهار ، ولأقومنّ الليل ما عشتُ** : «**أنت الذي تقول ذلك؟؟**» .. **فإنك لا تستطيع ذلك ، فصم وأفطر ، ونَم ، وقم ، وصم من الشهر ثلاثة أيام فإن الحسنة بعشر أمثالها ، وذلك مثل صيام الدهر**» **وعندما قال له عبدالله** : «**فإني أُطيق أفضل من ذلك ، قال له عليه الصلاة والسلام – رحمة به –** : «**فصم يوماً ، وافطر يومين**» ، **ويعود عبدالله التقيّ الورع ليقول : فإني أُطيق أفضل من ذلك ، فيقول له الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام** : «**فصُم يوماً وافطر يوماً ، فذلك صيام داود ﷺ وهو أعدل الصيام**» ،

وعندما يُصر عبدالله بن عمرو على أنه يُطيق أفضل من هذا يؤكد له نبيُّ الرحمة أنه لا أفضل من صيام داود عليه السلام[1] .

بل إن الرسول عليه الصلاة والسلام أفطر يوماً في سفر مشهود رحمة بأصحابه ، عندما رأى التعب بادياً عليهم ، ودمغ الذين لم يرحموا أنفسهم منهم فيأخذوا برخصة الفطر في السفر ، بأنهم عصاة :

فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى مكة عام الفتح ، فصام حتى بلغ كُراع الغميم[2] **، وصام الناس معه ، فقيل له : إن النّاس قد شقّ عليهم الصيام ، وإن الناس ينظرون فيما فعلت ، فدعا بقدح من ماء بعد العصر ، فشرب والناس ينظرون إليه ، [وفي رواية أخرى لجابر : فرفعه حتى نظر الناس إليه ثم شرب] ، فأفطر بعضهم وصام بعضهم ، فبلغه أن ناساً صاموا ، فقال : أولئك العصاة »**[3] **وفي رواية كررها مرتين .**

ويتصل هديه ﷺ ، وحثه على الرفق بالنفس ورحمتها ، حتى ولو أدى طلب الرحمة أحياناً إلى تأجيل أداء ركن من أركان الإسلام كالصوم ، بل إنه – عليه الصلاة والسلام – يعتبر التشديد على النفس ، وحرمانها من الرحمة التي هيّأها الله لها ، ليس من البر في شيء وإن بدا في ظاهره كذلك :

يقول جابر بن عبدالله رضى الله عنه : «كان النبي ﷺ في سفر ؛ فرأى رجلاً قد اجتمع عليه الناس ، وظُلِّل عليه ، فقال : ما باله ؟ قالوا : رجل صائم ، فقال عليه

---

(١) متفق عليه ، وانظر : النووي : رياض الصالحين ص ٨٠ – ٨٣ .

(٢) كُراع الغميم : اسم واد بالقرب من عسفان .

(٣) رواه مسلم والنسائي والترمذي .

الصلاة والسلام : «ليس من البر أن تصوموا في السفر ، وعليكم برخصة الله التي رخّص لكم ، فاقبلوها»[1]

(٥)

وفي مجال رحمة الغير نجدُ أنه ليس في سجل المودة الإنسانية أكرمُ ولا أنبلُ ولا أجملُ من موقفه عليه الصلاة والسلام الذي وقفه بإزاء رسم قبر أمه التي رحلت عنه بأمر الله وهو يافعٌ صغير ؛ **فقد روى البيهقي بسنده عن سفيان الثوري أن نبيَّ الله ﷺ انتهى يوماً من عام الحديبية إلى رسم قبر فجلس ، وتفجر يَنْبُوعُ الرحمة في قلبه فبكى وقال : «هذا قبر آمنة بنتِ وهب**[2] **وكان عمره إذ ذاك نحو الستين»** .

ولم يُعرف في تاريخ الرحمة والرحماء على مدار التاريخ الإنساني رحمة تعدل عطفه وحنانه ﷺ على حاضنته أم أيمن ، تلك الأمة الاعجمية التي ورثها عن أبيه فيما ورثه عنه من ميراث ضئيل ، وقامت على رعاية شؤونه ﷺ بعد وفاة أُمه آمنة بنت وهب :

إنه سيد الأوفياء من البشر ، قابل صنيعها به وهو صغير ، بصنيع ما كانت تتوقعه ، ولا تتخيل حدوثه ، لأن العادة لم تجر به آنئذ في مجتمع الناس ، ولكن من قال إن محمداً النبيّ ، محمداً الرحمة ، كسائر الناس ؟؟

عمد ﷺ إلى بركة الحبشية أمته الحانية ، فغمرها بعطفه وحنانه ؛ فرد إليها حريتها كاملة ، وبذلك غدت من حرائر مكة وسيداتها ، ولم ير عليه الصلاة والسلام

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الصوم باب قول النبي صلى الله عليه وسلم لمن ظُلّل عليه واشتد الحر الخ . . مع يسير الاختلاف .

(٢) وأنظر كذلك : ابن سعد ، الطبقات ٧٤/١ ، ابو الحسن الندوي : السيرة النبوية ص ٣٧٥ .

أن هذا كافياً لرد جميلها عليه ، فمنحها شرفاً لم تُحظ به امرأة من بني جنسها الأحباش ، حرة كانت أم أمة ، بل لم يحظ به من نساء الدنيا إلاَّ العدد القليل ، لقد ألحقها الرءوف الرحيم ﷺ بآل بيته ، فكان يقول لأصحابه كلما مرت بين يديه ، أو جاء ذكرها : «**إنها بقية أهل بيتي**» ، بل امتد ظل رحمته الوارف إلى هذه المرأة الطيبة ، فهمَّهُ من أمرها ما يهم الأب حين تبلغ ابنته سن الزواج ، لأنه يعلم – بما أودع الله فيه من حسّ مرهف ، وشعور نبيل – أن المرأة لا تكتمل سعادتها ، ولا يهنأ عيشها إلاَّ في بيت الزوجية ، حتى ولو كانت تعيش مع أبيها الحاني العطوف ، أو كانت تعيش مع من هو أفضل من هذا الأب وأحْنى ، مع خير خلق الله طُرّاً : محمد ﷺ ، لذا أعلن في أصحابه ، يُحرضهم على إتمام سعادتها وهنائها ، قائلاً : «**من سَرَّه أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن**»[1] أو كما قال عليه الصلاة والسلام ، ومن ذا الذي لا يسره أن يتزوج امرأة من أهل الجنة ؟ لهذا تسابق الصحابة رضوان الله عليهم يخطبونها ، وسبقهم إلى هذه المكرمة العظيمة مولاه زيد بن حارثة فاتخذها زوجاً له وحليلة[2] .

وهذه صورة أخرى من صور بره ووفائه ورحمته ﷺ : هبطت حليمةُ بنتُ أبي ذؤيب السَّعدية مرضعته ﷺ ذات يوم مكة المكرمة ، تلتمس من ابنها من الرضاعة العون على حمل أثقال الحياة ومتاعبها في سنة قاحلة مجدبة ألمت ببادية مكة آنذاك ، وما يكاد الرسول الودود ﷺ يراها مقبلة عليه حتى يهتف بها – وقد تجاوز عمره الأربعين – **أُمي ! أُمي !** ثم يأخذ بيدها في رفق ليدنيها من مجلسه ، ويبسط لها رداءه الشريف لتجلس عليه ، ثم يُدخل يده الطاهرة من دون ثيابها فيمس ثديها

---

(١) ابن سعد : كتاب الطبقات جـ ٢ ص ١٦٣ – ١٦٤ ، وانظر : طه حسين : على هامش السيرة جـ ١ ص ١٥٩ – ١٦٤ ، عباس العقاد : العبقريات الاسلامية ص ٢٤٤ .

(٢) ابن سعد : نفس المرجع والصفحات ، طه حسين : نفس المرجع ص ١٦٤ .

مساً رقيقاً ، كأنه يذكر ما لذلك الثدي عليه من جميل ، وما لهذه الأم الرءوم على حياته من أثر . ثم يطلب إلى خديجة أن تعطيها ما يكفيها طوال ذلك العام . وقد جاء في رواية ابن سعد أنه ﷺ أمر لها ببعير وأربعين شاة[1] .

أية رحمة حواها قلب ذلك الإنسان العظيم ! !

وهذا وفد قبيلة هوازن التي هُزمت منه ﷺ في وقعة حنين يأتي الرسول العطوف ﷺ ، مسلماً معلناً إسلام قبيلته ، يتقدمه عمٌّ للرسول الكريم من الرضاعة ، يلتمس منه ﷺ أن يمن على هذه القبيلة بما سبي منها من النساء والأطفال ، إكراماً لذكرى رضاعه فيها ، ويُذكّره هذا العم بذلك فيقول : « **يا رسول الله ، إنما في هذه الحظائر من كان يكفلك من عماتك وخالاتك وحواضنك ، وقد حضناك في حجورنا ، وأرضعناك بثُدِيِّنا . لقد رأيتك مرضعاً فما رأيتُ مرضَعاً خيراً منك ، ورأيتك فطيماً فما رأيتُ فطيماً خيراً منك ، ثم رأيتك شاباً فما رأيتُ شابّاً خيراً منك ، وقد تكاملتْ فيك خلالُ الخير ، ونحن مع ذلك اهلك وعشيرتك ، فامنن علينا منّ الله عليك** »[2] .

وكان عليه الصلاة والسلام قد استأنى – بعد المعركة – بهوازن أن تأتيه مسلمة بضع عشرة ليلة ، ليرد عليها أموالها وأسراها وسباياها ، فلما لم تأت قَسَّم الغنائم بين المسلمين ، فلما جاء الوفد بعد ذلك وعرض مسألته رقّ له النبيّ ﷺ ، فقال – إكراماً لعمه هذا ، ووفاءً لذكرى إرضاعه : « **لقد استأنيتُ بكم حتى ظننتُ أنكم لا تقدمون ، وقد قَسّمتُ السبي وجرت فيه السهمان ، فما كان منه لي ولبني عبد**

---

(١) ابن سعد : كتاب الطبقات ١/٣١ – ٣٢ ، طه حسين : على هامش السيرة ١/١٩١ ، عباس العقاد : العبقريات الاسلامية ص ٢٤٣ – ٢٤٤ .

(٢) ابن سعد : المرجع السابق ١/٣٢ ، قسم أول (ط . ليدن) ، وانظر : العقاد : العبقريات ص ٢٤٣ – ٢٤٤ ، طه حسين : على هامش السيرة ١/١٩١ – ١٩٢ .

المطلب فهو لكم . وسأسأل لكم الناس » . وانتهى الأمر بأن قال الصحابة : « وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ . وأبت قلة من الأعراب ردّ ما عندها . فاشتراه الرسول الكريم منهم . وردّ للجميع نساءهم وأطفالهم[1] .

وقصة رحمته ﷺ بالشيماء بنت حليمة السعدية اخته من الرضاعة مشهورة لا تحتاج إلى تعليق :

كانت الشيماء إحدى سبايا المسلمين في غزوة حنين . وقد ساقها المسلمون فيمن ساقوا إلى رسول الله ﷺ . فلما انتهت إليه أخبرته أنها أخته من الرضاعة . لما تعلم فيه من وفاء لأقل معروف . **فقال لها عليه الصلاة والسلام : ما علامة ذلك ؟** قالت : عضّة عضضتنيها في ظهري وأنا متوركتك[2] فلما وقف الرسول الكريم على صدقها فاض قلبه بالرحمة . فبسط لها رداءه . وأجلسها عليه . ثم خيّرها بين البقاء عنده معززةً مكرمة . وبين أن يمتعها ويُعيدها إلى قومه . فرغبت في العودة إلى قومها ممتعة . فحقق الرسول الكريم لها ذلك . وأعاطها ثلاثة أعبد وجارية ونِعَماً وشاة . فكان لهذه الرحمة الغامرة أثرها الفوري في إسلام الشيماء[3] .

إن سلوك الرسول الكريم ﷺ إزاء الرحمة يُوحي بأنها كانت عنده فضيلة الفضائل . بل إنه كثيراً ما يُجاوز بها هذه المنزلة إلى منزلة أرفع فيعطيها الأولوية على بعض الفرائض التي تُثبِّت دعوته . وتنشرها في الآفاق البعيدة :

روى الإمامان : البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما

---

(١) الحافظ الصنعاني : المصنف ص ٣٨١ – ٣٨٢ ، البخاري : الجامع الصحيح ، الندوي : السيرة ص ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، =٣ .

(٢) أي : حاملتك على وركي .

(٣) ابن كثير : البداية ٦٨٩/٣ ، ابن القيم : زاد المعاد ٤٤٩/١ .

أنه قال : «**أقبل رجل إلى نبيّ الله ﷺ فقال : أُبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله تعالى . فقال : هل لك من والديْك أحد حيٌّ ؟ قال : نعم ، بل كلاهما ، قال : فتبتغي الأجر من الله تعالى ؟ قال : نعم ، قال : فارجع إلى والديْك فأحسن صحبتهما**»[1] . وفي رواية أخرى لهما[2] : **جاء رجل فاستأذنه في الجهاد ، قال : ألك أبوان ؟ قال : نعم ، قال : «ففيهما فجاهد»**[3] .

وهذا رجل يأتي النبيَّ عليه الصلاة والسلام ليقول له : «جئت أُبايعك على الهجرة وتركتُ أبويَّ يبكيان ، فأجابه الرسول عليه الصلاة والسلام : «إرجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما»[4] .

ويأتي إليه ﷺ رجل آخر يقول : **إني أشتهي الجهاد يا رسول الله ، غير أني لا أقدر عليه ، فيخاطبه الرسول الكريم الرحيم : «هل بقي من والديك أحد؟» فيجيب الرجل : نعم ، أمي ، فيقول له ابنُ عبدالله : قابل الله في برها ، فإذا فعلت ذلك فأنت حاجٌّ ومعتمر ومجاهد**»[5] .

(٦)

وكان صلى الله عليه وسلم أرحم الناس بالصبيان ، إذا مرَّ بهم سلّم عليهم وباسطهم ، وإذا قدم من سفر تُلقّى بصبيان أهل بيته[6] ، وإذا تعلق به أحدهم لم

---

(١) اللفظ المسلم .
(٢) للبخاري ومسلم .
(٣) اللفظ للبخاري .
(٤) الحافظ الصنعاتي : المصنف ص ١٧٥ ، أخرجه ابو داود .
(٥) رواه أبو يعلي والطبراني ووثقه ابن حبان .
(٦) العلامة النبهاني : شمائل الرسول ص ١٢١ .

يرده عنه حتى يقضي منه وطره . روى البخاري بسنده عن أبي قتادة قال : «**خَرج علينا النبيُّ ﷺ وأمامة بنتُ أبي العاص على عاتقه ، فصلى ، فإذا ركع وضع ، وإذا رفع رفعها**»[1]

وكان عليه الصلاة والسلام يُقبل الأطفال ويشمهم ، ويرى ذلك من الرحمة التي يهبها الله لمن يشاء من عباده ؛ **فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ أخذ ابنه ابراهيم فقبله وشمَّه** . **وروت عائشة رضي الله عنها قالت** : «**جاء أعرابي إلى النبيِّ ﷺ فقال** : **تقبلون الصبيان ؟ فما نقبلهم** . **فقال النبيُّ ﷺ** : «**أوَ أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة ؟**» . وعن أبي هريرة رضى الله عنه أنه قال : «قبَّل رسول الله ﷺ الحسن بن عليّ وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالساً ، فقال الأقرع إنَّ لي عشرةً من الولد ما قبلتُ منهم أحداً ، **فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال** : «**من لا يَرحم لا يُرحم**»[2] .

وتحدث أسامة بن زيد رضى الله عنهما عن رحمة هذا الإنسان العظيم به وبغيره فقال : «**كان رسول الله ﷺ يأخذني فيُقعدني على فخذه ، ويُقعد الحسن على فخذه الأخرى ، ثم يضمّهما ثم يقول «اللهم ارحمهما فإنى أرحمهما**»[3] .

ويروي العلامة النبهاني[4] فيقول : «وكان ﷺ يُركِّب الحسن والحسين على ظهره ، ويمشي على يديه ورجليْه ويقول : نعم الجمل جملكما ، ونعم العدلان أنتما ، وربما فعل ذلك بينهما وهما على الأرض ، ودخل الحسن وهو ﷺ قد سجد ، فركب على ظهره ، فأبطأ في سجوده حتى نزل الحسن ، فلما فرغ قال له بعض

---

(١) كتاب الأدب باب رحمة الولد وتقبيله .

(٢) أخرج البخاري كافة هذه الأحاديث في كتاب الأدب باب رحمة الولد وتقبيله .

(٣) أخرجه البخارى فى باب : وضع الصبي على الفخذ .

(٤) وسائل الوصول إلى شمائل الرسول ص ١٢٢ .

أصحابه ، يا رسول الله لقد أطلت سجودك ، قال : **إن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله** » .

ومن عطفه وحنانه ووده ورحمته بالصبيان ما رواه خادمه أنس ابن مالك رضى الله عنه قال : « **وكان رسول الله ﷺ يقول لفاطمة : « ادعي إلى ابنيّ [الحسن والحسين] فيشمهما ويضمهما إليه** »[1] **وأخرج البخاري**[2] **أنه ﷺ دعا يوماً ريحانته الحسن ، فجاءه يُسرع حتى وقع في حجر رسول الله ﷺ ، ثم أدخل يده في لحيته يعبث بها ، فجعل النبي ﷺ يفتح فاه ، فيُدخل فاه في فيه** .

ومع ولعه ﷺ بالصلاة التي جعل الله قرة عينه فيها ، وكان يقول لمؤذنه بلال : ارحنا بها يا بلال ، فإنه – ﷺ – من رحمته بالصبيان كان يتجوز فيها إذا سمع بكاء صبيٍّ ، فقد روى البخاري بسنده أنه ﷺ قال : « **إني لأقوم في الصلاة أريد أن أُطول فيها ، فأسمع بكاء الصبيّ فأتجوز في صلاتي ، كراهية أن أشق على أمه** »[3] .

ومن أروع صور رحمته ﷺ ، وأقواها أثراً في النفس ، موقفه من أحد أحفاده وهو يجود بالنفس الأخير . روى أسامة بن زيد رضى الله عنه ، أن زينب بنت رسول الله ﷺ أرسلت إلى أبيها يوماً تقول له : « **إن ابني قد احتضر فأشهدنا ، ولما كان قلبه الرحيم لا يقوى على شهادة هذا الموقف الحزين فإنه عمد إلى اتقائه ، فأرسل إلى ابنته يقرأُ السلام ويقول : « إن لله ما أخذ وما أعطى ، وكل شيء عنده مُسمىً ، فلتصبر ولتحتسب » . ولكن زينب رضي الله عنها لم تعفه ﷺ من مشاركتها رؤية**

---

(١) أخرجه الترمذي في باب المناقب .

(٢) في كتابه : الأدب المفرد ص ١٢٧ .

(٣) كتاب الصلاة من صحيحه .

طفلها يموتُ ، فأرسلت تقسم عليه ، قال أنس : «فقام وقمنا معه ، فلما قعد رُفع إليه فأقعده في حجره ، ونفس الصبيِّ تقعقع ، ففاضت عينا رسول الله ﷺ ، فقال سعد : ما هذا يا رسول الله ؟ قال : «هذه رحمة يضعها الله في قلوب من يشاء من عباده ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»[1] .

وقد علق الأستاذ المرحوم عباس محمود العقاد على هذه الواقعة فقال : «ما هذا يا رسول الله ؟ هذا رسول الله في أصدق ما تكون عليه رسالة الرسل ، في الرحمة وفي الآصرة الإنسانية ، وغير هذا لن يكون»[2] .

(٧)

ونلمس دلائل هذا الفؤاد الرحب ، وهذا العطف الشامل ليس مع الأصحاب والأصدقاء ، ولا مع المساكين والفقراء ، والأيتام والصبيان وسائر الضعفاء حسب ، بل هو كذلك مع أعدائه ﷺ الأشداء الألداء :

لم يثأر من أحد أساء إليه في شخصه قط ، بل كان يعفو ويصفح وهو القادر على رد الصاع صاعين ، وما كافأ قط بالسيئة السيئة . فعن أبي هريرة رضى الله عنه أنه قال : «**كنت مع النبي ﷺ وعليه برد غليظ الحاشية ، فجذبه أعرابي بردائه جبذةً شديدة حتى أثَّرت حاشية البرد في صفحة عاتقه ، ثم قال : يا محمد ، أحمل لي على بعيريّ هذيْن من مال الله الذي عندك ، فإنك لا تحمل لي من مالك ولا من مال أبيك . فسكت النبيّ ﷺ ، ثم قال : المال مال الله وأنا عبده . ثم قال : ويُقاد**

---

(١) رواه البخاري – مع اختلاف يسير – في كتاب المرضى ، باب عيادة الصبيان ، وانظر : الندوي السيرة ص ٣٦٧ ، والعقاد : العبقريات ص ٢٨٨ — ٢٨٩ .

(٢) العبقريات الإسلامية ص ٢٨٩ .

منك يا أعرابي ما فعلت بي ؟ قال : لا . قال : لم ؟ قال : لأنك لا تُكافيء بالسيئة السيئة . فضحك النبيُّ ﷺ ثم أمر أن يُحمل له على بعير شعير وعلى الآخر تمر» [1] .

وعفا ﷺ عن رجل همّ بقتله وهو نائم . فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه أنه قال : «**غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة نجد ، فلما أدركته القائلة وهو في واد كثير العِضاة ، فنزل تحت شجرة واستظل بها وعلّق سيفه ، فتفرق الناس في الشجر يستظلون ، وبَيْنَا نحن كذلك إذ دعانا رسول الله ﷺ ، فجئنا فإذا أعرابي قاعد بين يديْه ، فقال : إن هذا أتاني وأنا نائم ، فاخترط سيفي ، فأستيقظتُ وهو قائم على رأسي مُخْتَرِطٌ سيفي صلتاً قال من يمنعك منّي ؟ قلتُ : الله ، فَشَامَهُ ثم قعد ، فهو هذا . قال : ولم يُعاقبه رسول الله ﷺ**» [2]

هذا وإني لا أعرف في هذا الباب صورة للعطف والرحمة والصفح والغفران تقرب في بهائها وجمالها وروعتها – على امتداد تاريخ الرحمة في التاريخ البشري – من رحمته وحنانه على عبدالله بن أبي بن سلول رأس المنافقين ، الذي عاهد وغدر ، ثم واثق ونقض ، ولقي منه النبيُّ ﷺ الكيد تلو الكيد في السر وفي العلن ، ومِالأ عليه وعلى المسلمين كل عدوٍ لهم . فلما فاق في ذلك كل حد ذاع بين الناس أن رسول الله ﷺ أهدر دمه وقضى بقتله ، وكان لعبدالله هذا ابن بارٌّ به من المسلمين ، فلما انتهت إليه أخبار قتل أبيه قدم إلى رسول الله ﷺ وقال له : «يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبدالله بن أبي فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر

---

(١) النبهاني : شمائل الرسول ص ١٢٨ ، ورواه البخاري في كتاب الجهاد ، وأحمد في المسند جـ ٣ ص ١٥٣ باختلاف يسير .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المغازي ، غزوة بني المصطلق .

بوالده مني ، وإني لأخشى أن تأمر به غيري فيقتله ، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس ، فأقتله ، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر فأدخل النار»[1]

فلما سمع الرءوف الرحيم ﷺ مقالة ابنه هذه امتلأت نفسه بالرحمة حتى فاضت ، فعدل عن قتل غريمه وألد أعدائه ، وشمله بهذه الرحمة الغامرة ، ثم كافأ هذا الابن البار – الذي لم يحل بره بأبيه بينه وبين الإخلاص لدينه ، والبر به ، وإيثاره على البر بأبيه . فكان من رحمة هذا النبيّ الكريم بهما أن تصدق بقميصه ليُكفن به ابن أبي حين مات ، وصلّى على جنازته على الرغم من محاولة عمر رضى الله عنه ثني رسول الله عن الصلاة على هذا العدو الذي لم يدخر وسعاً في إيذاءِ الرسول الكريم وصحبه ، مُذَكّراً لهَ بالآية الكريمة : «**اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْلاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ**»[2] وكان أن عقب الرسول الكريم ﷺ على تذكير عمر له بهذه الآية بقوله : «**لو أعلم أني إن زدتُ على السبعين غفر له زدت**» ، ومدَّ ظلّ رحمته الوارف على هذا الرجل فأشرف على تجهيزه وتجهيز مثواه الأخير ، ووقف حتى فرغ من دفنه ، وكان ﷺ قد أمر ، زيادة في الصفح الجميل والإغضاء عن مساوئه ، أن يُخرج من قبره – كما يقول البخاري[3] – قبل أن يهال عليه التراب ، ليضعه على ركبتيْه الطاهرتيْن ، وينفث فيه من ريقه العذب ، ثم يلبسه قميصه ﷺ[4] .

---

(١) ابن هشام : سيرة النبي القسم الثاني ص ٢٩٢ – ٢٩٣ ، وانظر : العقاد : العبقريات ص ٢٤٩ .

(٢) سورة التوبة الآية ٨٠ .

(٣) في صحيحه ، كتاب الجنائز ، نقلاً عن : «أبو الحسن الندوي» : السيرة النبوية ص ٣٧٦ ، وانظر : عباس العقاد : العبقريات الإسلامية ص ٢٤٩ .

(٤) أنظر : الندوى : السيرة ص ٣٧٦ .

(٨)

وقبل أن تفطن أوربا زعيمة الحضارة الحديثة كما تدعي إلى وضع تشريع أو قانون للرفق بالإنسان ، ناهيك عن الرفق بالحيوان ، جاء الرسول الكريم ﷺ قبل أربعة عشر قرناً من الزمان بتشريع بهر الألباب في الرفق بالحيوان ، لقد اتسع عطفه ﷺ ، ورحبت رحمته ، فوسعت الأحياء وغير الأحياء من الكائنات ، «كان رقيق القلب ، سريع الدمعة ، يرق للضعفاء ، ويرحم الحيوان والدواب ، ويوصي بالرفق بها»[١] :

كان يصغي الإناء للهرة لتشرب .

كان يُواسي في موت طائر يلهو به أخو خادمه .

أوصى المسلمين بالدواب قائلاً : «إذا ركبتم هذه الدواب فاعطوها حقها من المنازل ولا تكونوا عليها شياطين»[٢] .

وتحدث سهيل بن عمرو عن رحمته ﷺ بالحيوان ، وحدبه عليه ، وتكرار الوصية به **فقال : مرّ رسول الله ﷺ ببعير قد لحق ظهره ببطنه ، فقال : «اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة ، فاركبوها صالحة ، وكلوها صالحة»**[٣] .

ويتحدث عبدالله بن جعفر عن رائعة أخرى من روائعه ﷺ في الرحمة بالحيوان فيقول : «**دخل رسول الله ﷺ حائطاً لرجل من الأنصار ، فإذا فيه جمل ، فلما رأى رسول الله ﷺ حنّ وذرفت عيناه ، فأتاه النبيّ ﷺ فمسح سراته**

---

(١) الندوي : السيرة ص ٣٨٢ .

(٢) رواه الدارقطني من حديث أبي هريرة رضى الله عنه ، وانظر : العقاد : العبقريات ص ٢٤٤ .

(٣) رواه أبو داود .

وذِفراه[1] ، **فسكن ، فقال : «من ربّ هذا الجمل ؟ لمن هذا الجمل ؟ فجاء فتىً من الأنصار فقال : هذا لي يا رسول الله ! قال : «أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها ؟ فإنه يشكو إليّ أنك تُجيعه وتُدئِبُهُ»**[2] .

ولا تنتهي رحمته بالحيوان والأحياء عند حد ، فهذه أمٌّ من الطير ، امتدت يد البشر إلى ولدها لتأخذه ، فأحزنها ذلك أيما حزن ، وجاء الرسول الرحيم فبذل حزنها سروراً . روى ابن مسعود رضي الله عنه فقال : «**كنا مع رسول الله ﷺ في سفر ، فانطلق لحاجته ، فرأينا حُمَّرَةً معها فرخان ، فأخذنا فرخيْها ، فجاءت الحُمَّرَةُ تُعْرِش**[3] ، **فجاء النبيّ ﷺ فقال : «مَن فجع هذه بولدها ؟ ردوا ولدها إليها»**[4]

ويُغري - ﷺ - بالرحمة في أسلوب أخاذ ، مبشراً من يرحم الحيوان ولو كان كلباً فيقول : «**إن الله غفر لإمرأة مومسة ، مرت بكلب على رأس ركيّ يلهث قد يكاد يقتله العطش ، فنزعت خفها فأوثقته بخمارها ، فنزعت له من الماء ، فغفر لها بذلك**»[5] .

ويحض على الرحمة بالحيوان بأسلوب آخر باهر ، هو أسلوب التحذير فيقول : «**عُذبت امرأة في هرة ، حبستها حتى ماتت فدخلت فيها النار ، لا هي أطعمتها أو سقتها إذ هي حبستها ، ولا هي تركتها تأكل من خَشَاش الأرض**»[6]

---

(١) سراته : سنامه ، وذفراه : الموضع الذي يعرف في قفاه عند أذنيه .

(٢) رواه أبو داود في باب الدواب .

(٣) ترتفع وتظلل بجناحيها من تحتها .

(٤) رواه أبو داود في باب الجهاد بإسناد صحيح .

(٥) البخاري : كتاب الأدب ، باب : رحمة الناس بالبهائم ، والعقاد : العبقريات ص ٢٤٤ .

(٦) متفق عليه .

ولا تقتصر رحمته ﷺ بالحيوان حال حياته ، بل تمتد رحمته له حتى عند موته ، فعن أبي يعلى شداد بن أوس ، عن رسول الله ﷺ قال : «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحُد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته**»[1]

بل حتى الحشرة السامَّة كالأفعى يرحمها الرسول ﷺ ، ويوصي بالرفق بها : «**مَن قتل وَزَغاً في أول ضربة كتبت له مائة حسنة ، وفي الثانية دون ذلك ، وفي الثالثة دون ذلك**»[2] .

(٩)

قد يزعم زاعم من غير حجة ولا برهان أن في الناس من يرحم الحيوان رحمة محمد ﷺ ، فهل يجوز مثل هذا الزعم عن رحمته ﷺ بالهوام كما مر ، وبالجماد ؟

إن رحمته ﷺ بالجماد تتمثل في عدة صور ومعانٍ ، من أهمها :

الصورة الأولى : تتجلى في تسميته للأشياء من الجمادات التي اتصلت به ﷺ ، بالأسماء ، وهذا المسلك تجاه الجماد يحمل في طياته معنى الألفة ، ويجعل هذه الأشياء المسماة أشبه ما تكون «بالأحياء المعروفين ، ممن لهم السمات والعناوين ، كأنّ لها شخصية مقربة تميزها بين مثيلاتها ، كما يتميز الأحباب بالوجوه والملامح ، وبالكنى والألقاب»[3] :

---

(١) رواه مسلم في كتاب الذبائح .

(٢) رواه الامام مسلم ، وأنظر : خالد محمد خالد : انسانيات محمد ص ٦٢ .

(٣) العقاد : العبقريات الاسلامية ص ٢٤٥ .

كان ﷺ يسمى رايته «**العقاب**» وخيمته «**الكِن**» ، وقضيبه «**الممشوق**» ، وقدحه «**الريان**» ، وركوته «**الصادر**» ، وسرجه «**الداج**» ، ومقراضه «**الجامع**» وسيفه المُحَلّى الذي يخوض به المعارك : «**ذا الفقار**» ، وجعبته «**الكافور**» ، وناقته «**القصواء**» ، وبغلته «**دُلدُل**» ، وحماره «**يعور**» ، وشاته التي يشرب لبنها «**عينة**» ، وقوسه «**ذا السِّداد**» ، وكنانته «**ذا الجُمع**» ، ودرعه الموشحة بنحاس : «**ذات الفضول**» ، وحربته «**النبعاء**» ، ومجنه «**الزفن**» ، وفرسه الأشقر : «**المرتجز**» ، وفرسه الأدهم : «**السَّكب**» ، وبساطه «**الكز**» ، وعنزه «**النَّمر**» ، ومرآته «**المدلَّة**» ، وقصعته : «**الغرَّاء**» يحملها أربعة رجال .

ومن أسماء جياده الأخرى : «**اللحيف**» ، و«**الظرب**» ، و«**اللزَّاز**»[٢] .

الصورة الثانية : تبدو في تعبيره البليغ ﷺ عن عاطفة الحب المتبادل بينه وبين هذه الجماعات التي ارتبطت به على نحو من الأنحاء : **عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ طلع له «أُحُد» فقال : «هذا جبل يُحبنا ونحبه» . وأخرج البخاريُّ بسنده عن أبي حُميد أنه قال : «أقبلنا مع النبيّ ﷺ من غزوة تبوك ، حتى إذا أشرفنا على المدينة قال : «هذه طابة ، وهذا أُحُد ، جَبَلٌ يُحبنا ونُحبه»**[٣] .

الصورة الثالثة : تتمثل في تعامله ﷺ مع هذه الجمادات التي اتصلت به كأنها ناس من الناس ؛ وتجاوب هذه الجمادات معه كأنها تبادله حُبّاً بحب ، وتسكن عندما يغمرها برحمته ﷺ .

---

(١) العلامة النبهاني : شمائل الرسول ص ٨٠ – ٨١ ، وانظر : العقاد : العبقريات ص ٢٤٥ .
(٢) «الجامع الصحيح» ، كتاب المغازي ، باب غزوة تبوك .

روى الحافظ الأصفهاني بسنده ، عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ كان يخطب [قبل أن يتخذ لنفسه منبراً] إلى جذع نخلة ، فقيل له : يا رسول الله إن الإسلام قد استطار ، وكثر الناس ، وتأتيك الوفود من الآفاق ، فلو أمرت بصنعة شيء تشخص عليه ، فدعا رجلاً فقال «اصنع منبراً... فلما وضعه وصعد عليه رسول الله ﷺ حنّ جذع النخلة التي كان يقوم عليها حنين الناقة ، فسمع أهل المسجد صوتها شوقاً إلى رسول الله ﷺ» [1] **عندئذ أدار ﷺ وجهه نحو الجذع التي طالما وقف عليها من قبل ، ودمعت عيناه ، فنزل وسار في رحمة ظاهرة إلى الجذع والتزمها ، ثم قال : «والذي نفسي بيده لو تركتها حنت إلى يوم القيامة** [2] .

ثم عاد عليه الصلاة والسلام إلى منبره ، فخطب الناس وصلّى بهم ، فلما فرغ من ذلك «أوصى أصحابه أن يضعوا الجذع في سقف المسجد حتى لا يُستهلك في غرض آخر ، تكريماً له ووفاءً» [3] .

(١٠)

كان الرسول الكريم ﷺ – كما رأيتم – عطوفاً ودوداً ، يَرْأَمُ مَن حوله ، ويُصفيهم وده ، وقد داوم على ذلك طوال حياته ، لذا نرى أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين – يُبادلونه حُباً بحب ، وِوداً بود ، بل يؤثرونه بحب لم تسمع الدنيا بمثله على مرّ الأيام وكِرّ الدهور :

فهذا زيد بن حارثة الذي خطف من أهله وهو صغير يهتدي إليه أبوه بعد طول

---

(١) دلائل النبوة ١٤٢/٢ .

(٢) المرجع السابق والصفحة ، وانظر : خالد محمد خالد : إنسانيات محمد ص ١٢٤ – ١٢٥ .

(٣) ابن سعد : الطبقات ، وانظر : خالد محمد خالد : إنسانيات محمد ص ١٢٤ – ١٢٥ .

فراق واشتياق ، ويطلب الأب ابنه من الرسول الكريم ﷺ ليرده إلى أهله وعشيرته ، يعيش بينهم «سيداً» كما يعيش أترابه ، بعد أن كان واحداً من رقيق مكة المكرمة . ويخيره الرسول الكريم بين العودة إلى أهله «سيداً» ، وبين البقاء مع «سيده» محمد ﷺ رقيقاً ، وياله من خيار صعب ! ويا لدهشة أبيه وهو يسمع ابنه يختار البقاء مع السيد العطوف رقيقاً ، على الذهاب مع الوالد المشتاق حُرّاً . لقد شقّ على زيد رضي الله عنه أن يغيب عنه وجه محمد ﷺ ، وأن تُحرم نَفْسُهُ من حنان ذلك القلب العطوف الذي أفاض عليه الرحمة بغير حساب[1] .

ولعلّ من الأفضل أن نوجز هذه القصة كما جاءت في طبقات ابن سعد :

أقبل – قبل مبعث الرسول ﷺ – حارثة بن شراحيل وأخوه كعب ذات عام حاجيْن . وبعد قضاء مراسم الحج أخذا يبحثان عن محمد بن عبدالله سيّد ابنهما زيد فَدُلاّ عليه ، فأتياه وقالا له : «**يا بن عبدالله ، يا بن عبد المطلب ، يا بن هاشم ، يا بن سيد قومه ! أنتم أهل الحرم وجيرانه وعند بيته ، تَفكون العاني ، وتُطعمون الأسير ، جئناك في ابننا عندك ، فامنن علينا ، وأحسن إلينا في فدائه ، فإنا سنرفع لك في الفداء**» . **قال : ما هو ؟ قالوا : زيد بن حارثة . فقال رسول الله ﷺ : «فهل لغير ذلك» ؟ قالوا : ما هو ؟ قال : ادعوه فخيروه ، فإن اختاركما فهو لكما بغير فداء ، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي اختار على من اختارني أحداً . قالا : قد زدتنا على النَّصف ، وأحسنت . قال : فدعاه فقال : هل تعرف هؤلاء ؟ قال : نعم . قال : مَن هما ؟ قال : هذا أبي وهذا عمي . قال : فأنا من قد علمت ورأيتَ صحبتي لك ، فاخترني أو اخترهما . فقال زيد : ما أنا بالذي أختار عليك أحداً ،**

---

(١) انظر : ابن هشام . سيرة النبي ق ١ ص ٢٤٧ – ٢٤٩ . ابن سعد : الطبقات ٢٨/٣ . عباس العقاد : العبقريات الاسلامية ص ٢٤٦ .

أنت مني بمكان الأب والأم . فقالا : ويحك يا زيد ! أتختار العبودية على الحرية ؟ وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك ؟ قال : نعم ! إني قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً . فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك أخرجه إلى الحِجْر فقال : «يا من حضر ، اشهدوا أن زيداً ابني أرثه ويرثني» . فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما وانصرفا ، فدعي : زيد بن محمد ، حتى جاء الله بالإسلام» [1] .

وهذا ثوبان مولى رسول الله ﷺ يراه السيد العطوف يضعف يوماً بعد يوم ، ويُصيبه الهزال ، وينحل جسمه ، ويستولي عليه حزن عميق ، وهم دائم ، فيخشى الرسول الكريم أن يكون قد أصابه مكروه ، أو أن به علة من مرض ، فيستفسره صلى الله عليه وسلم عمّا به ، ويجيب ثوبان موجزاً أسباب كربه وهمه فيقول : **يا رسول الله : «إني إذا لم أرك اشتقتك واستوحشتك وحشة عظيمة ، فذكرتُ الآخرة حيث لا أراك هناك ، لأني إن دخلتُ الجنة فأنت تكون في درجات النبيين فلا أراك»** [2] **فأنزل الله عز وجل : «وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً»** [3] .

هذا الصحابي الجليل لا يطيق فراق رسول الله ﷺ في الدنيا ساعة ، فكيف يطيق فراقاً لا يعرف مداه ، ولم يقنع هذا المولى بعشرة رسول الله ﷺ في الدنيا ، ولكنه يرجو أن يجمعه الله به في مستقر رحمته ، وهذا أثر بيّن للمعاملة الرحيمة التي كان يلقاها من الرسول ﷺ . وقد قيل إن الرسول الكريم قال يومئذ بعد نزول الآية

---

(١) ابن سعد : كتاب الطبقات ٣/٢٨ ، ط. ليدن وانظر : طه حسين : على هامش ٣/٢٢٣ – ٢٢٥ .

(٢) عباس العقاد : العبقريات ص ٢٤٦ ، وقد أخرج الطبراني وابن مردويه بسند لا بأس به هذه القصة دون ان يذكرا «ثوبان» بالإسم في أسباب نزول هذه الآية الآتية :

(٣) سورة النساء الآية ٦٩ .

الكريمة ، مطمئناً ثوبانَ : «**يُحشر المرء مع من أحب**» ، أو «**أنت مع من أحببت**» ، **أو كما قال عليه الصلاة والسلام** .

وهذه المرأة في المدينة تتسمّع أنباء المعارك الدائرة ، فينعي إليها خاصة أهلها ، فتقول : إنا لله وإنا إليه راجعون» ، ثم تعود لهفانة لتسأل عن النبيّ ﷺ ، وتطمئن على سلامته من كل سوء . قبل أن تسأل عن سلامة الأخوة والأعمام[1] .

لقد فاق حُبُّ الصحابة للرسول ﷺ كل تصور ، كان الرسول الكريم أحب إليهم من أنفسهم وأولادهم وأموالهم ، لهذا دخل قاموس اللغة العربية في زمانهم :

«فدتك نفسي» ، «بأبي أنت وأمي» ، ونحوها من الكلمات والجمل الدالّة على بلوغ الغاية في حب الرسول ﷺ . ولم تقم هذه الظاهرة على فراغ ، فقد رأينا في الصحائف السابقة كيف أنه ﷺ قد زرع شجرة الحب في المدينة المنورة ، وتعهدها بالرعاية والعناية ، وغذاها من قلبه الزاخر بفيوضات الرحمة والحنان ، فكان هذا السلوك الرفيع للصحابة في التضحية والفداء .

روى ابن كثير عن عروة وموسى بن عقبة أن رسول الله ﷺ بعث – سنة ثلاث للهجرة – ستةً من أصحابه مع وفد قبيلة هذيل الذي جاءه يطلب إليه من يعلمهم الإسلام ، في هؤلاء الستة **عاصم بن ثابت** ، **وخبيب بن عدي** ، **وزيد بن الدَّثِنَّة** ، فلما كانوا عند «**الرجيع**» – موضع بين عسفان ومكة – غدر الأعراب بالمسلمين ، فقتلوا من قتلوا ، وأسروا من بقي ، فكان ممن أُسر وبيع بمكة **زيد بن الدَّثِنة** الذي اشتراه **صفوان بن أمية بن خلف** ليقتله بأبيه ، واقتيد الفتى حيث نصب للقتل ، وعندئذ خاطبه **أبو سفيان** شامتاً ساخراً : «**أُنشدك الله يا زيد ، أتحب أن محمداً الآن**

---

(١) العقاد : العبقريات ص ٢٤٧ .

عندنا في مكانك تُضرب عنقه وأنت في أهلك؟» فأجابه زيد في ثبات المؤمن الصادق الإيمان الراسخ العقيدة ، المحب لنبيه ﷺ : «**والله ما أُحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تُصيبه شوكة تُؤذيه وأنا جالسٌ في أهلي**» . فذهل **أبو سفيان** واعترف على الفور قائلاً : «**ما رأيت من الناس أحداً يُحبه أصحابه كما يحبُّ أصحاب محمدٍ محمداً**»[1] .

رضي الله عنك يا زيد بن الدثنة ، وعن إخوانك الصحابة الكرام البررة ، وصلى الله عليك وسلم وعظم وكرم يا رسول الله .

---

(١) البداية والنهاية ١٣١/٣ ، وانظر : أبو الحسن الندوي : السيرة النبوية ص ١٩٣ ، عباس محمود العقاد : العبقريات الاسلامية ص ٢٥٠ – ٢٥١ ، والبخاري : كتاب المغازي ، غزوة الرجيع .